«فلسفة روسو في سياق اعترافاته وسيرته الذاتية»

د. غيضان السيد علي[*]

تمهيد

هل من الممكن أن تُقدم السيرة الذاتية في قالب فلسفي ؟ أم هل يمكن اعتبار السيرة الذاتية جزء من إبداعات الفيلسوف وفلسفته؟ أم هي ضرورية فقط لفهم فلسفته واتجاهه الفكري؟ فلا يمكن فهم فلسفة أي فيلسوف دون فهم ومعرفة سيرته الذاتية؟ أم هل من الممكن أن يقدم الفيلسوف جل فلسفته من خلال سيرته الذاتية؟ وإلى أي مدى يمكن تصنيف السيرة الذاتية كعمل فلسفي أصيل؟ من خلال اعترافات جان جاك روسو، التي كُتبت بين ١٧٦٥-١٧٧٠م ونُشرت بين ١٧٨١- ١٧٨٨م يمكن تقديم إجابات عملية ونظرية لهذه الأسئلة؛ حيث إن لهذه الاعترافات تأثير تاريخي مهم؛ لأنها قدمت طرقاً جديدة لفهم النفس وعلاقتها بالآخرين الذين تعيش في وسطهم. إن شجاعة الكاتب وتصميمه على إعادة تقييم كل القيم في حياته يؤثر حتى على من يقرأ الكتاب بعد أكثر من مأتي عام بعد صدوره.

عاش روسو طفلا يتيما، ماتت أمه بعد مولده بأيام، ولم يبلغ العاشرة حتى لحق والده بوالدته فصار يتيم الأم والأب، فلم يتلق تعليما منتظما في طفولته ولا في صباه، وكانت فترة شبابه قلقة غير مستقرة، ينتقل من عمل إلى آخر. ولم يبدأ ما يشبه الحياة المستقرة إلا عندما بلغ العقد الثالث من عمره، وفاز في مسابقة أعلنتها أكاديمية «ديجون» لأفضل رسالة في العلوم والفنون، فكتب رسالته الشهيرة التي هاجم فيها الحضارة ونادى بالعودة إلى أحضان الطبيعة. وشرح فيها نظريته الجديدة التي ترى أن مبادئ الفضيلة كامنة داخل كل إنسان، ويكفي أن ينظر كل منا إلى أعماقه الفطرية بعيدا عن تأثير الحضارة الحديثة كي يراها بوضوح، وسيعرف طعم السعادة عندما يعرف كيف ينسجم مع هذه الفطرة النقية.

(*) مدرس الفلسفة الحديثة بآداب بني سويف.

في الحقيقة لابد أن نقر مقدما بأن الحقائق المعروفة عن حياة روسو محدودة، ربما بسبب الاعترافات التي أعلن فيها أنه سيقول الحقيقة كاملة وإن اهتم أكثر في واقع الأمر بشرح مبادئه والدفاع عن نفسه. بحيث يمكننا القول بأن الاعترافات في ظاهرها سيرة ذاتية وفي باطنها دفاع عن المبادئ والرؤى وأهمية شرحها بطريقة تجعلها قريبة إلى وجدان القارئ.

مكانة السيرة الذاتية لروسو

تعد السيرة الذاتية لجان جاك روسو بأجزائها الخمسة - حسب الترجمة العربية - من أفضل السير الذاتية الفلسفية التي كُتبت لفيلسوف على الإطلاق؛ وذلك لعدة أسباب منها:

الأول: إنها دونت بقلم الفيلسوف ذاته فكانت أدق وأصدق مصدر لسيرة فيلسوف.

الثاني: إن هذا الفيلسوف التزم الصدق والحيدة إلى حد كبير، فلم يقدم لنا نفسه على أنه ملاكاً بريئا أو شيطانا رجيما، ولكنه قدمها كما هي بحسنها وقبيحها، بخيرها وشرها، طيبها وخبيثها.

الثالث: إنها كانت أول عمل أدبي يكشف فيه صاحبه عن نفسه فيظهرها على حقيقتها الكاملة.

الرابع: حاول روسو من خلال سيرته الذاتية أن يقدم تبريراً لأفكاره الفلسفية التي سطرها في مؤلفاته المختلفة، وكأنه يحاول أن يقدم تبريرا لما أقدم عليه من آراء قد تبدو مخالفة إلى حد بعيد إذا ما تم مقارنتها بما كانت عليه تصرفاته في الواقع.

الخامس: تعد هذه السيرة أشبه بمحاولة أوربية جديدة لتقديم الآراء والتصورات الفلسفية في قالب قصصي، وكأنها محاولة لتقليد الفيلسوف العربي ابن طفيل في قصة حي بن يقظان، حيث إنها تحمل مضمون تربوي واجتماعي في رسالة قصصية سهلة الفهم.

وقد فطن المفكرون والدارسون العرب لأهمية هذه الاعترافات ولا سيما المصريون منهم، فذهب سلامة موسى في عام ١٩٥٥م إلى القول: «إن اعترافات جان جاك روسو من الكتب التي كان أن يترجم إلى لغتنا قبل مائة أو مائة وخمسين عام، فلقد تغيرت أوربا بتأثير أفكار هذا الأديب، ونستطيع أن نعزو أهم التطورات التي حدثت في هذه القارة إلى آرائه التي يتلخص

مغزاها في كلمات معدودة هي «أن الطبيعة حسنة والإنسان طيب ولكنهما يفسدان بالمجتمع السئ»(١). كما كتب عبدالرحمن صدقي قائلًا: «انقضى نيف ومائة وستون سنة على وفاة روسو وانصرف الأدباء وجمهرة القراء عن مطالعة «العقد الاجتماعي» و«إميل» و«هلويزا الجديدة»، ولكنهم لم ينصرفوا عن مطالعة اعترافاته؛ وذلك لأن الآراء في السياسة والاجتماع والتربية والأخلاق يدخلها التغيير والتبديل، أما نجوى النفس البشرية فهي لا تتغير ولا تتبدل، فنحن نتعرف فيما نحسه في أعماقنا على غرائز رجل الكهوف...فكم بالحري إذا كان صاحب هذه النجوى مثل صاحب الاعترافات أقرب إلى عصرنا بثقافته، وإن كان أشبه بأهل الفطرة في صراحته وجرأته»(٢).

وترفع الاعترافات في مجملها شعاراً فحواه «لتتعلموا أيها الناس من أخطائي ... فتتجنبوا الشقاء الذي عانيته وتنعموا بالحياة الطيبة»، فقد عمد روسو إلى عرض الخطايا والشرور والبوائق التي ارتكبها في حياته دون أن يجفل من مواجهة الحقيقة وكأنه مؤمن صادق التوبة يصارح إلهه بأخطائه برهانا على صدق توبته والتماسا لصفحه.

فقد كان يسعى إلى أن يقدم تجاربه للناس، ولا سيما في التربية ورعاية النشء فلما واتته الجرأة، نزع ستر الزيف والتضليل وساق الحديث صريحاً واضحًا، فيقول في بداية الكراسة الأولى من الاعترافات: «إنني مقدم على مشروع لم يسبقه مثيل، ولن يكون له نظير، غذ إنني أبغي أن أعرض على أقراني إنسانا في أصدق صور طبيعته، وهذا الإنسان هو أنا، أنا وحدي، فإني أعرف مشاعر قلبي، كذلك أعرف البشر، ولست أراني قد خلقت على شاكلة غيري ممن رأيت، بل إنني لأجرؤ على أن أعتقد بأنني لم أخلق على غرار احد ممن في الوجود، وإذا لم أكن أفضل منهم، فإنني - على الأقل - اختلف عنهم! ولن يتسنى لنا البت فيما إذا كانت الطبيعة قد أصابت أو أخطأت إذا أتلفت القالب الذي صاغتني فيه إلا بعد قراءة هذه الاعترافات»(٣).

---

(١) حلمي مراد، مقدمة ترجمة الاعترافات لجان جاك روسو، الجزء الأول، دار البشير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق - بيروت، ص ٥. ويمكن الرجوع إلى سلامة موسى: اعترافات جان جاك روسو، مقالة بأخبار اليوم، عدد ١٩ نوفمبر، ١٩٥٥.

(٢) المرجع السابق، نفس الموضع، ويمكن الرجوع أيضا إلى:عبد الرحمن صدقي: مجلة الثقافة، ١٤ فبراير، ١٩٣٩.

(٣) جان جاك روسو: الاعترافات، ترجمة حلمي مراد، الجزء الأول، دار البشير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق- بيروت،د.ت، ص ٩.

ومن ثم يمكن القول بأن سيرة روسو الذاتية قد عكست اهتماماته الفلسفية؛ ففي بدء حياته هاجم الحضارة وعارض بين العقل والعاطفة، وزعم أن التفكير يتلف إحساس القلب الفطري وآثر الحياة البدائية على حياة التفلسف والنظر العقلي، وانعكست هذه الرؤية في باكورة أعماله الفلسفية «هل عادت العلوم والفنون بفائدة على الجنس البشري؟».

فقد صرح لنا روسو في أكثر من موضع في اعترافاته أنه ما أستطاع يوما أن يكتب شيئا والقلم في يده، وقد جلس إلى مكتبه وأوراقه، ولكنه كان يدون في رأسه أثناء النزهات وسط الصخور والغابات(١).

وقد كان بحثه الأول الذي نال عنه جائزة أكاديمية ديجون عام ١٧٥٠م بعنوان «هل عادت العلوم والفنون بفائدة على الجنس البشري» فأجاب روسو أن العلوم والفنون تفسد الشعور، وأكد أن الثقافة أقرب إلى الشر منها إلى الخير، ومن ثم كان لابد أن يدخل في تصادم مع فولتير راعي الثقافة والأدب والعلوم حينذاك.. كما أن كثيرا من مظالم الدنيا ترجع إلى أننا نسمح للعقل أن يتقدم القلب ويسبقه. وقد كان ذلك نتيجة لإعجابه الجم الذي ملك عليه جوارحه بالحياة الريفية التي عاش فيها في سنه المبكرة، حيث يقول روسو: «كان الريف شيئا جديدا عليّ، حتى أني لم أكن أسأم التمتع به، وقد شعرت حياله بحب بلغ من حيويته أنه لم يخمد قط» وسيستقر هذا الذوق في نفس روسو، ويلازمه، ويكون إحدى صفاته الجوهرية: سيواجه دائما بساطة الريف بفساد الحضر»(٢).

حيث يسهب روسو في الاعترافات في وصف حياته في هذا الكوخ الصغير، المطل على واد صغير، بأنها حياة تملأها البهجة والاستمتاع بالريف والمناظر الطبيعية التي لا تملها العين ولا القلب، كان يسعد برحلات طويلة سيرا على الأقدام، تنشط ذهنه، وتقوي قدميه، وتحرر روحه وفكره، وترفعه إلى الله...

وهكذا كان روسو - في المرحلة الأولى من حياته - يعيش حياة تجمع بين الواقع والخيال، فهو إنسان بسيط يحب الطبيعة والريف، ذو عاطفة جياشة ترى كل شيء أجمل مما هو عليه، كان روسو يكره المجتمع، ويحتقر الأطباء، يجد سعادته متأملا في الأشجار والطيور والجبال، يجد دينه الطبيعي يسطع في تأمل الطبيعة وشروق الشمس(٣).

---

(1) Rousseau,The Confessions, Translated by.Cohen Penguin, Book 3, p.57.

(2) Ibid, Book 1, p.5.

(3) Ibid, Book. 4, p.22.

ولذلك أكد على العودة للطبيعة البدائية من خلال أجابته في بحثه الذي نال عنه الجائزة عن السؤال: هل حققت الآداب والعلوم نفعا للبشرية؟ وكانت إجابة روسو بالسلب، فقد أكد أن العلوم والآداب والفنون هي أسوأ أعداء الأخلاق، ولأنها تخلق الحاجات فهي مصادر للرق. إذ كيف يمكن فرض الأغلال على أولئك الذين يمضون عراة مثل البدائيين الأمريكيين؟ وكما ينبغي أن نتوقع كان يقف إلى جانب أسبرطة ضد أثينا. وقد طالع كتاب «بلوطارخ: سير الرجال العظماء» وهو في السابعة وتأثر بهذه السير كثيرا وكان معجبا بوجه خاص بحياة «لوكورجوس». ومثل الاسبرطيين أخذ النجاح في الحرب على أنه اختبار للجدارة وأيا ما كان، فقد كان يعجب «بالبدائي الأصيل». الذي كان في وسع الأوربيين المخادعين أن يهزموه في الحرب. وكان يرى أن العلم والفضيلة متنافران، ولجميع العلوم أصل خسيس. فعلم الفلك نشأ من خرافة التنجيم، والبلاغة نشأت من الطموح، والهندسة من البخل، والفيزياء من الفضول الذي لا جدوى منه، وحتى الأخلاق تنبع من اعتزاز الإنسان بذاته. وواجبنا أن نأسف على التربية وفن الطباعة، فإن كل ما يميز الإنسان المتحضر من البدائي الساذج فهو شر[١].

واقع سيرته الذاتية في نظرياته التربوية

أودع روسو خلاصة آرائه التربوية في كتاب «إميل» أو «في التربية» تناول فيه حقيقة التربية الطبيعية، حيث نادى - تحت إعجابه بالريف كما تعكس لنا اعترافاته- بأن يؤخذ الطفل من أبويه، ويسلم على مرب ماهر يدخل في قلبه حب الطبيعة، تماما كما أخذ هو وسلم للقس الذي عُهد إليه بتربيته هو وابن خاله، حيث ملك عليه حب الطبيعة كل جوارحه، يرى فيها من الجلال والروعة ما لا يراه في غيرها، ويذهب إلى أن المدن قبور للمواهب الإنسانية، ينهدم فيها بناء الجسم وتفسد فيها القوى العاقلة والأخلاق الفاضلة[٢].

فقد قدم لنا روسو في نظرياته التربوية آراء جديدة قد تخالف إلى حد كبير آراء كبار المربين في عصره، كما تخالف أيضا إلى حد كبير آراء رجال الدين المسيحي، فقد كان يرى رجال الدين والمربون أن الطفل يولد بطبيعة شريرة ومن ثم تكون مهمة المربين تعديل هذه الفطرة الشريرة وتحويله إلى كائن طيب بزرع الأخلاق الطيبة والمبادئ الرفيعة والمثل العليا

---

(١) محمد هاشم: نماذج من الفلسفة الحديثة، ص٣٩٠-٣٩١.

(٢) سامية عبدالرحمن، جان جاك روسو الفيلسوف الثائر، ص ٢٣.

في نفسية الطفل، ومن ثم رأى هؤلاء أن التربية إنما وضعت لتستأصل من الطفل طبيعة الشر، وجذور السوء التي خلقت معه، وتغرس في مكانها طبيعة فاضلة(١).

أما روسو فقد ذهب إلى العكس تماما وقرر في أول سطور كتابه «إميل» حقيقة مغايرة تماما لما قال به هؤلاء المربون ورجال الدين، حيث بدأ الكتاب الأول بعبارة قوية وبليغة لا تعبر فقط عن رأيه في التربية بقدر ما يمكن اعتبارها مفتاحا لفلسفته كلها بلا أدنى مبالغة، فيقول في السطر الأول من بداية هذا الكتاب «كل شيء يصدر من يد الخالق طيبا وجميلا و يفسد بيد الإنسان»(٢). ومن ثم يكون الأساس الذي أكد عليه هو أن التربية إنما وضعت لتحول بين الإنسان والفساد، ولتسير به فى طريق الخير الذي سارت فيه طبيعته الأولى حين بدء خلقه. فالتربية الأولى عنده سلبية محضة، بمعنى ألا تتضمن تلقين حقيقة من الحقائق، أو غرس فضيلة من الفضائل، و إنما تعمل على حفظ القلب من الرذيلة، والعقل من الخطأ، فهي (أي التربية) تساعد الطفل على السير في طريق الخير متى بلغ السن التي يعرف فيها معنى الخير وأسرار الوجود(٣).

فالتربية في مضمونها عند روسو إصلاح مفاسد الحضارة والتمدن، وذلك بتقديم منهج خاص للتربية، مع الدعوة إلى الطبيعة الأولى، حيث المساواة وانعدام وجود الملكية التي تنمي الشعور الفردي بالأنانية و إيثار الذات فتبدأ الشرور والمفاسد، أما الإنسان لو تُرك على سجيته الأولى التي فُطر عليها لكان صالحا طيبا فكل شيء صدر من يد الخالق طيبا وصالحا وأفسد بيد التمدين والحضارة.

ويشمل برنامج روسو التربوى أربعة عناصر هي: الطبيعة، العقل، الأخلاق والدين، تعليم المرأة، فيرى أن الطبيعة قد أوجدت الإنسان سعيدا وطيبا والمجتمع هو الذي أفسده وقيده بأغلاله، ومن ثم تصبح وظيفة التربية هي إعادة تكوين الأفراد في الجو الطبيعي الذي عاش فيه الإنسان البدائي ، فنضمن بذلك أن تعود أخلاقهم إلى طبيعتها الأصلية الخيرة .

أما العقل ودور النشأة العقلية، وهو الدور الذي ينبغي ان تشتد فيه العناية بالعقل و بالعلم، ولكن يجب ان تكون المعارف التي يكتسبها الفتى طبيعية، وذلك بأن يتصل بالأشياء مباشرة،

---

(١) المرجع السابق، نفس الموضع

(2) Rousseau: Emile, or Treatise on Education, translated by. William H. Payne. ph. D.N.Y. and London ,1926,p.xix.

(3) Leslie .F. Claydon: Rousseau on Education, London macmillan co. 1969, p14-17.

وان يصل بالملاحظة الشخصية على استكشاف الضروري له في العلوم والفنون ، ولا يلقن دروساً شفوية، ولا يسمح له بمطالعة الكتب، فإنها جميعا لا تعلمه إلا ألفاظاً. ومن ثم يعطى روسو العقل مكانة عظيمة في ظل التعليم العملي لا النظري، فالعقل عنده لم يُخلق من أجل تخزين المعلومات ولم تكن هذه ابدأ وظيفته، ولكنه جُبل على اكتساب المعلومات، فهو عقل مفتوح مستعد لمعرفة كل شيء، فالمعرفة في هذه المرحلة لابد ان تكون مادية صرفة فلابد أن يتعلم الفتى بتجاربه الخاصة[1]. وعلى هذا الأساس نفسه تنبني التربية الدينية والأخلاقية، فلابد أن تكون التربية الدينية والأخلاقية المقدمة للنشء نابعة من الأفعال لا من المواعظ والكلمات، دعه لا يتعلم من الكتب ما يمكن أن يتعلمه من الخبرة والتجربة. فالحق والخير والجمال كل هذه ليست عبارات فارغة من المعنى، فلابد من ممارستها واقعيا وفعليا حتى يكون تأثيرها حقيقي على الروح والعقل معا. أما الدين الذي ينشده روسو فهو ليس ذلك الدين الجغرافي، فالطفل في مكة يؤمن بان محمد ﷺ هو رسول الله والطفل في باريس لا يؤمن بذلك، وكل واحد فيهما يعتقد انه على صواب والآخر على كفر وضلال. ويخلص روسو في حل هذه المعضلة هو ألا نعلم الطفل هذا الدين أو ذاك، وإنما نضعه في موضع يتيح له استعمال عقله على أفضل نحو ليقوده إلى الاختيار السليم[2]. وفيما يتعلق بالدين من السهل أن نصفه من دراسة الطبيعة إلى البحث عن خالقها، وهنا يرشدنا روسو ألا نسلك طريق العقل، بل طريق العاطفة والقلب[3].

أما تربية المرأة وتعليمها عند روسو فلا يُقصد بها أن تكون مساوية للذكر في العلم والعمل والحرية وما إلى ذلك من حقوق المرأة، وإنما الهدف من تربيتها هو تأهيلها لان تصبح زوجة صالحة فقط تستطيع أن تسعد زوجها وان تكون ذات ولاء دائم له.

فالمرأة تختلف اختلافا بينا عن الرجل، ومن ثم يجب أن تربى بطريقة جد مغايرة كما أوجدتهما الطبيعة متغايرين... ولذلك تصبح تربية المرأة عند روسو مقصورة على تدبير منزلها وتربية أولادها وإسعاد زوجها فحسب، وهو أن رأى ضرورة العناية بالتربية البدنية والجسمية للمرأة فلا يكون ذلك إلا لإكساب المرأة قوام ممشوق يمتع زوجها وان تكون قادرة على تحمل

(1) Rousseau: Emile,p140-148.
(2) Ibid, p.230.
(3) Ibid, p.237.

مصاعب الحمل والولادة ومن أجل إنجاب أطفال أصحاء، وعلى الفتاة أن تتعود الطاعة وحب العمل وأن تتعلم الحياكة والتطريز وأشغال الإبرة، وكذلك الغناء والعزف والرقص، فكل هذا يزيد من جمالها ويكثر من إعجاب الرجال بها، أما الفلسفة والعلوم والفنون فليس لها أن تشتغل بشئ منها؛ لأنه لا يرى فيها القدرة على مزاولة الأعمال العقلية التي يزاولها الرجال، ويرى أنه يجب على رجال الفكر أن لا يتزوجوا نساء اقل منهم فكرا وتعليما، ولكنه يفضل الفتاة البسيطة على المتعلمة الذكية التي تحول بيتها إلى مكان عمل[1]. ولعل هذا ما يفسر ما عجز المفسرون لسيرته الذاتية من ارتباطه بـ « تيريز ليفسر » التي كانت خادمة بالفندق الذي نزل به بباريس، وعاش معها حتى نهاية حياته (دون استبعاد علاقات أخرى) وأنجب منها خمسة أطفال أودعهم جميعا ملجأ اللقطاء!!! ولم يفهم أحد بالمرة سر إعجابه بها وانجذابه إليها فقد كانت دميمة قبيحة جاهلة، لم تكن تستطيع أن تقرأ أو تكتب ولم تكن تعرف أسماء الشهور ولا كيف تحصي النقود. وفي السنوات الأخيرة كانت تشرب حتى الثمالة وتطارد صبيان الإسطبلات.. ومع ذلك كان لا يسمح لجميع السيدات العظيمات اللائي صادقنه ألا يتدخلن في شأنها![2].

سيرته الذاتية وآراؤه السياسية والاجتماعية

وقد انعكس جو الحرمان والفاقة والعوز والفقر الذي سيطر على اعترافاته من أولها إلى آخرها على نظرياته في الاجتماع والسياسة، فيحن روسو للرجل البدائي وحالته البدائية، فيرى «أن أول من سور قطعة أرض، ثم قال هذه لي، ووجد قوما سذجا يصدقونه، كان هو المؤسس الحقيقي للمجتمع المدني». وفي هذه المقولة يفسر روسو أسباب نشأة المجتمع أو الدولة، ذلك أنه من فلاحة الأرض نشأ تقسيمها، وبالتالي نشأت الملكية التي هي أساس ومصدر كل الشرور، فالملكية تولد عدم المساواة، كما تولد المنافسة، وبالتالي اتساع الفجوة بين الفقراء والأغنياء، ويصبح القتال مروعا، وتختفي الأخلاق؛ لأن الغنى الفاحش يفسد الإنسان، والبؤس يفسده أيضا. إن التفاوت يفسد الكبار والصغار مثلما يفسد حتما كل شيء في الطبيعة.

فالفساد أصله عند روسو يعود إلى ظاهرة الملكية الخاصة والترف والإمعان في الشهوات هي سبب كل التعاسات المكدسة التي تقع على رؤوس ملايين الفقراء، ولا سبيل لتخليص البشرية

(1) Ibid, p. 301.

(٢) محمد هاشم: نماذج من الفلسفة الحديثة، ص٣٩٠.

من هذا الشقاء إلا بعودة الإنسانية لحالتها الطبيعية. وهكذا صور روسو الحياة البدائية على أنها هانئة سعيدة، سادها الخير وانتشرت بها الفضيلة، لم يكن هناك حاكم ولا محكوم، متعلم ولا جاهل، غني ولا فقير، لم يكن الإنسان الأول في حاجة إلى ممارسة الكذب أو النفاق أو الرياء، إذ لماذا يمارس هذه الخصال ما دام لا يوجد أي تفاوت أو تمايز بين الناس[1].

ويؤكد روسو أنه في حالة الاجتماع تظهر مشاعر الحقد والحسد وينقسم المجتمع على نفسه، ويتأسس المجتمع الطبقي، ويظهر التناقض صارخا، ومن هنا يظهر القانون كوسيلة تؤمن النظام الاجتماعي ويبرز المجتمع السياسي إلى الوجود، وفي ظل التعقيد البنائي للمجتمع اغتراب كل إنسان عن ذاته حيث اختفت الصداقة المخلصة والتقدير الحقيقي، والثقة الكاملة بين البشر، وحل محلها الحسد والشك والخوف والكراهية التي بدأت تكمن بشكل دائم خلف قناع من الأدب الخادع.

ولا شك أن تأثر روسو بما شاهده عند الفقراء من ضنك وبما عاناه هو نفسه أحيانا من حرمان وفاقه وقرنه بما شاهده لدى الأغنياء الذين عاشرهم من ترف وإسراف بالغ فامتلأت نفسه بالمرارة والسخط على الحياة الاجتماعية التي حجرت قلوب الحكام والأغنياء فسمحوا لأنفسهم أن يعيشوا في كل هذه التخمة ولإخوانهم في الإنسانية أن يعيشوا على الكفاف هم وصغارهم، يقول روسو: «يولد الإنسان حراً، ولكنه في كل مكان يُكبل بالأغلال، هذا الإنسان يظن أنه سيد الآخرين بالرغم من إنه أكثرهم مذلة»[2]. وهنا تأمل روسو ما لاحظه في طبقة العامة من براءة وقناعة وطلاقة وعاطفة برغم ما يرسفون فيه من أغلال وقرنه بما عليه أصدقاؤه ومعارفه من الأغنياء والعلماء والفلاسفة والأدباء من غرور وأنانية ودهاء وأدب متكلف، ونظر في قرارة نفسه فوجدها نفسا طيبة تفيض شفقة على البائسين فلم يسعه إلا أن يقرر أن حياة الفطرة هي اطهر حياة وأسعدها وأن الشر والفساد مردهما إلى المدنية وحياة المجتمع.

ومن ثم تخيل روسو تنظيما للحياة الاجتماعية في ظل حكومات صالحة تستند إلى تعاقد اجتماعي يمكن الناس من جني ثمرات المدنية وتجنب مظاهر البؤس والعبودية التي تصاحبها

---

(١) سامية عبدالرحمن، جان جاك روسو الفيلسوف الثائر، ص ٢٣.

(2) Rousseau: social contract, An Eighteenth century, trans. edited by Charles frankel. N.y. 1954, p.39.

عادة. فالأفراد الذين عجزت وسائلهم الفردية في حياة الفطرة والعزلة والاستقلال عن ضمان بقائهم ورخائهم خلال تقلبات الطبيعة ومصاعبها لابد ان يلتمسوا وسيلة للبقاء والازدهار في تجمعهم وضم قواهم الفردية بعضها على بعض فينشأ عن ذلك قوة هائلة يمكن توجيهها توجيها متناسقا يكفل التغلب على كل الصعاب. ولكن قوة الفرد وحريته هما أهم الأسلحة التي يستعين بها في المحافظة على ذاته، فكيف يقدمها للجماعة من غير أن يكون قد فرط في حق نفسه وعرض حياته ومصالحه للضرر!

إن المشكلة تتطلب البحث عن أسلوب من أساليب الاتحاد تستخدم فيه كل قوة الجماعة لحماية شخص كل مشترك وماله، بحيث يظل كما كان من قبل حرا غير خاضع إلا لنفسه. وقد رأى روسو أن ذلك ممكن إذا تعاقد أفراد الجماعة على عقد من مادة واحدة هي: «أن يضع كل عضو شخصه وحقوقه تحت تصرف الإرادة العامة معتبرا كل عضو من الأعضاء جزء لا يتجزأ من المجموع[(١)]».

والمجتمع الذي يتألف على هذا الأساس هو الدولة. ويترتب على هذا العقد أن يتنازل كل فرد عن كل حقوق للجماعة لا لشخص معين. ويرى روسو أن هذا التنازل يحقق المساواة والحرية معا، أما أن هذا يحقق المساواة فواضح، وأما أن هذا يحقق الحرية فهذا ما خالفه فيه النقاد، انه يرى أن تنازل الفرد عن حريته وحقوقه الشخصية كلها للجماعة التي هو جزء لا يتجزأ منها هو نوع من الاحتفاظ بهذه الحرية وهذه الحقوق. كل ما حدث هو في رأيه أن الحرية الطبيعية الفردية الفجة التي تسمح للفرد أن يفعل ما يريد قد تحولت إلى حرية مدنية اجتماعية راقية لا تسمح للفرد أن يفعل إلا بحسب القانون الموضوع للصالح العام والمعبر عن إرادة المجموع، ومن ثم يكون حرا حرية مدنية التي هي أرقى أنواع الحرية، فإذا ما عملت هذه الهيئة الجمعية على تحقيق الأمن والأمان والحرية والعدالة العامة بين الجميع بقيت في الحكم أما إذا جارت على الحريات ولم تراع العدالة والمساواة بين أفراد المجتمع وجب على المجتمع الثورة عليها، ولا يجوز لها أن تتنازل عن الحكم لشخص معين أو هيئة إذ لا يعقل أن يتنازل الحر عن سيادته وحريته للغير طائعا، فانتقال السيادة لا يكون إلا اغتصابا، ولسيادة المغتصبة بالقوة غير شرعية، لأن الإنسان لا يقبل العبودية الناشئة عنها إلا مرغما، فإذا حانت له فرصة استردادها بالقوة كان إقدامه علي الثورة لاسترداد سيادته أمرا مشروعا، فأجاز

(١) عبده فراج وآخرون: مشكلات فلسفية، مطبعة وزارة التربية والتعليم، القاهرة ١٩٥٤، ص٢٥٤.

روسو الثورة على الحكم المستبد والحق الإلهي المقدس مما جعل الحكام في أوربا يغضبون عليه ويحرقون كتبه، ويعاني هو الاضطهادات ويفر من بلد إلى بلد ومن كوخ إلى كوخ يعاني الفقر والعوز ويتخلى عن أبنائه الذين لا يستطيع أن ينفق عليهم، ويعيش في معظم حياته عالة على الآخرين مرة على خاله ومرات علي سيدة محسنة تدعى «مدام دي فارن» ومرات يعيش مرتزقا على أصدقائه ومعارفه من المفكرين والفلاسفة آخرهم الفيلسوف الانجليزي ديفيد هيوم، حتى يمرض ولم تكن لديه القدرة على العلاج فيعود إلى باريس يتدرج في انحطاط الفقر والمرض، فتتكون لديه عقدة اضطهاد جنونية، فيظل سنواته الأخيرة في بؤس وشقاء حتى مات في يوليه عام ١٧٧٨م.

مات وهو ينشد كل ما لم يستطع الحصول عليه للأجيال القادمة، ينشد ديمقراطية دولة المدينة، والثورة على كل حاكم مستبد، حتى لو كلفنا هذا الأمن والأمان والسلام؛ حيث قال مقولته الخالدة في هذا الصدد «إنني أفضل الحرية مع الخطر على العبودية مع السلم».

مات وهو ينعى حظه المتعثر نظرا لفقره وآلامه التي دعته أن يتخلى عن أولاده وذلك لاستحالة تغذيتهم، فملجأ اللقطاء سيوفر لهم ما عجز هو عن توفيره لهم، فإنما أراد أن يجعل منهم عمالا وفلاحين بدلا من أن يجعل منهم مقامرين فاسدين على حد قوله!!